أثر استخدام الآلات

فى تعطل العمال

لم تكن أوربا تعرف التعطل بين العمال قبل الحركة الصناعية ، وذلك لأن الوسط الزراعى على ما فيه من انخفاض مستوى المعيشة يوفر العمل للجميع ، إذ أن الزراعة لا تعرف الاضراب ولا هى تكدس الأسواق بحاصلاتها (إلا إذا كانت هذه الحاصلات يتوقف رواجها وكسادها على المصانع كما هو الشأن فى القطن) فإنها تزود المدن بالطعام والمواد الخامة للباس ونحو ذلك .

ولكن المصانع الآلية تغرق الأسواق بمنتجاتها التى يعجز الجمهور أحيانا عن شرائها فتقفل أبوابها وتعطل آلاتها إلى أن تستهلك منتجاتها ، وفى هذه الحال يتعطل عمالها ، فالتعطل الذى يفشو فى أوربا ينشأ من وفرة الإنتاج مع العجز عن الاستهلاك ، وهذه الوفرة فى الإنتاج هى نتيجة استخدام الآلات .

ويجب لهذا السبب ألا نخشى التعطل فى مصر إلا فى البيئات الصناعية القليلة والصغيرة معا فى المدن ، وهذا هو الواقع ، فإن مسألة التعطل ليست من المسائل الخطيرة فى بلادنا إلى الآن ، على أن ذلك يجب ألا يبعثنا على التهوين من شأنها والسكوت عليها حتى تتضخم وتتفاقم .

فإن سكان القاهرة والاسكندرية يذكرون إلى الآن العامل الذى كان يحمل شعلة فى طرف عمود يوقد به مصابيح الشوارع . وقد اختفى هذا العامل لأن شركة الاضاءة استغنت عنه باختراع آلى يجعل المصابيح تضىء فى ميعادها بلا حاجة إلى عمال .

وكنا إلى وقت قريب نرى عامل الترام وقد وقف عند مفارق الخطوط لكى ينقل الترام إلى هذا الخط أو ذاك بعمود من الحديد ، ولكن هذا العامل ، قد اختفى أيضا من القاهرة والاسكندرية لأن شركتى الترام فيهما قد اهتدتا إلى اختراع آلى يجعل سواق الترام يحرك الخط إلى اليمين أو إلى اليسار قبل أن يبلغ نقطة الانتقال .

فهذان الاختراعان يبينان لنا مقدار ما تتركه الآلات من الأثر فى معايش الناس ، إذ أن العائلات التى كانت تعيش فى عاصمتى القطر بالعمل فى شركتى الترام والإضاءة لا يقل عددها عن ألفين وقد صار عائلوها إلى التعطل ، وهذان المثلان واضحان ، ولكن هناك أمثلة أخرى غير واضحة تبين التحول الاجتماعى وما يحدثه من تعطل كلى أو جزئى ، لأن الآلات قد استعملت بدلا من العمال ، ونحن نضرب بعض الامثلة :

فقد كانت معاصر العسل من القصب كثيرة فى قرى الوجه القبلى ، ولكنها بادت الآن لأن مصنع السكر قد أغنى عنها ؛

وكان الطبخ فى البيوت إلى قبل ثلاثين سنة يجرى كله بوقود مجلوب من الريف مثل الحطب أو غيره ، وكان كثيرون يعيشون فى الريف بجلبه كما يعيش الآن جالبو الخضراوات

والفواكه ، ولكن آلة صغيرة هى كانون البترول قد أغنت عن الحطب وسائر الوقود ، وصرنا نشترى هذه الآلة ولا نبنى الكانون فى المنزل كما صرنا نستعمل البترول بدلا من الحطب .

وقبل عشرين أو ثلاثين سنة كان الريف المصرى حافلا بالجمال والخيول المعدّة للنقل والجر . فلم تكن قرية أو عزبة تخلو من حصان أو جمل . ولكن الأتومبيل قد اكتسحهما وأخذ مكانهما . فانظر إلى عدد العمال الذين كانوا يكسبون عيشهم باستنتاج العلف لهذه الدواب أولا ، ثم إلى عدد أولئك الآخرين الذين كانوا يكسبون عيشهم باستخدام هذه الدواب فى الجر والنقل . ثم اذكر بعد ذلك أثر ذلك فى الدورة الزراعية . ولا تنس أيضا أن النقل فى المدن كان بعربات الحنطور فصار — إلى حد بعيد — بالأتومبيل ، فزالت بذلك صناعة وطنية كان يعيش منها ألوف العمال فى المدن والريف . وقد جرى هذا التطور فى صمت . ولكن هذا الصمت يجب ألا يعمينا عن التعطل الذى أفشاه هنا وهناك .

ولم تكن الأعمال الزراعية إلى وقت قريب تؤدى بغير الماشية حرثا وريا . ولكن آلات الرى قد أصبحت بخارية أو موطرية حتى عند المالك المتوسط الذى لا يزيد مقداره على أربعين أو خمسين فدانا . أما الدوائر الكبيرة فإنها الآن تحرث الأرض وتسقى الزرع وتحصد القمح بالآلات . وقد أفشى هذا نوعا من التعطل لا تكاد تحسه جرّاء إثره اختلاطا وهرجا فى البيئات الزراعية . فان الآلة الزراعية التى تحرث فى اليوم عشرين فدانا تحتاج إلى عامل واحد وتستهلك البترول وهذا العامل يؤدى عمل عشرين عاملا فى الحرث غير العمال الذين كانوا يهيئون علف الماشية ويقومون بصيانتها . وقس على ذلك .

ونستطيع أن نعدد الأمثلة . فهنا مصنع النجارة الذى يصنع النوافذ والأبواب بالآلات ويخرج فى اليوم نحو ثلاثين أو أربعين نافذة وبابا . وهو بهذا العمل يلقى فى التعطل عشرات النجارين المستقلين . وهذه آلة أخرى للطبع تخرج آلاف النسخ فى الساعة وتغنى عن عامل اليد . الخ .

وتفشى الآلات بيننا يجب لهذا السبب أن يلقى الانتباه والعناية اللذين يستحقهما العامل المصرى . ولسنا نعنى منع الآلات ، فان الأمم الكبرى لم تحقق ثروتها الضخمة وقوتها العظيمة إلا باستعمال الآلات . ولكنا نود أن يكون تطورنا الصناعى متمشيا مع العناية بالتعطل ومع النظر البعيد إلى آثار كل انقلاب ، هذا الانقلاب الذى تخشاه الأمم الأوربية نفسها . فان هنغاريا مثلا تمنع استعمال الآلات البخارية أو الموطرية فى الزراعة خشية احداث التعطل بين الفلاحين وخوفا من التأثير السيئ فى الاقتصاديات الزراعية التى تنتج من محو الثيران والخيول .

ونظن أن الأمة والحكومة يجب أن تتعاونا على درس هذا الموضوع ووزن ممكناته الحسنة والسيئة . فاننا من ناحية يجب ألا نقف عن الرقى الآلى ولكن من ناحية أخرى يجب أن نقى عمالنا خطر التعطل .